الحياة تحت الاحتلال في الضفة والقطاع

الحراك الاجتماعي والكفاح من أجل البقاء

مراجعة: ساري حنفي*

بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٨. ٣٥٣ صفحة.

الكتاب مجموعة من الأبحاث وضعها عدد من علماء الاجتماع وأخصائيي الصحة العامة (ليزا تراكي؛ ريتا جقمان؛ لميس أبو نحلة؛ بَني جونسون؛ جميل هلال؛ أيلين كَتّاب)، وهو يقدم تفسيراً بارعاً للمآسي الصغيرة في الحياة اليومية للفلسطينيين، على خلفية الواقع السياسي للاحتلال. ويزيد الكتابَ ثراء معرفةُ الباحثين الشاملة بالأدبيات النظرية ذات الصلة، وحساسيتهم الفائقة تجاه نسيج الحياة اليومية. لقد قام المؤلفون بسبر الاتجاهات الحديثة في الثقافة الحضرية، وكذلك أنماط الزواج، والهجرة والتكوين الطبقي، والمشاركة الاقتصادية للمرأة في الأراضي الفلسطينية المحتلة؛ ولم يتناولوا أسباب انهيار بعض المؤسسات وأنماط الحياة المعينة فحسب، بل أسباب استمرارها أيضاً.

الكتاب ثمرة تجربة المساهمين الجماعية، فقد حللوا النتائج الأولية للمسح الذي أجراه معهد دراسات المرأة، سنة ١٩٩٩، لأكثر من ٢٠٠٠ أسرة في ١٩ تجمعاً سكانياً في المناطق الفلسطينية. وكانت الدراسة نمطاً مختلفاً من المسح الوطني النموذجي، لأنها مسح معيشي للأسر في التجمع السكني (community household survey) لا يعتمد على تمثيل هذه الأسر على المستوى الوطني، بل على وضع الأسر ضمن بيئتها «الطبيعية»، أي بيئة قرية معينة أو مدينة أو مخيم للاجئين، وقد جرى اختيارها كنماذج تمثل أنواعاً متعددة من الاقتصاد ومن أنماط الحياة (على سبيل المثال، القرى ذات الاقتصاد الزراعي في مقابل القرى ذات اليد العاملة داخل إسرائيل). ويحلل الكتاب بعض البيانات المأخوذة من إحصاء سنة ١٩٩٧، إضافة إلى عمل ميداني إثنوغرافي أُجري مؤخراً خلال الانتفاضة الثانية. وفي حين يتوفر العديد من المطبوعات والتقارير التي تتناول الوضع الاقتصادي – الاجتماعي في المناطق الفلسطينية، والتي غالباً ما حافظت على المواد الأولية (أعمال المسح والإحصاءات) من دون تغيير، فإننا نادراً ما نصادف تحليلاً معمقاً على هذا النحو.

لقد ابتعد هذا العمل عن تمثيل العائلة الفلسطينية بشكل مثالي، وذلك بالاعتراف بحدود استراتيجيات التعاون والتضامن العائلي التي لم تستطع دائماً امتصاص الصدمات وتوفير العيش لأعضاء هذه العائلات في أثناء سنوات الانتفاضة.

* ساري حنفي: أستاذ مشارك في علم الاجتماعالجامعة الأميركية – بيروت.

وكان تقديم لميس أبو نحلة لستِّ عائلات من الضفة الغربية مهماً، إذ غاصت الباحثة في أعماق المقاومة اليومية للعائلة الفلسطينية وحركيتها، على الرغم من الواقع القاسي للعيش تحت الحكم الإسرائيلي، والاضطرار إلى عبور حواجز التفتيش المضنية، ومعاناة الاحتجاز خلف جدار الفصل.

أمّا الدراسة التي قدمتها ليزا تراكي وريتا جقمان فبالغة الأهمية لفهم التنوع الحالي لأساليب الحياة الحضرية في فلسطين، وقد لجأت الباحثتان إلى مصادر متعددة للحصول على المعطيات والمواد التاريخية الخاصة بثلاث مدن: رام الله والخليل ونابلس، وحاولتا شرح فرادة كل من هذه المدن الثلاث من حيث موقعها الجغرافي ضمن مناطقها وضمن تجمعاتها المباشرة القريبة والبعيدة، ومن حيث واقعها الحالي. لقد مثلت مدينة رام الله بالنسبة إلى هذه المدن الثلاث الحياةَ الحضرية والانفتاح والتنوع، في مقابل التعصب والتجانس في مدينتَي الخليل (وهي مدينة شبه ريفية) ونابلس (وهي مدينة تسودها التقاليد والنزعة الوطنية). وبالنسبة إلى الباحثتين، فإن رام الله تمثل محلية كوسموبوليتية (cosmopolitist-localism) معزولة عن باقي الأراضي الفلسطينية بقدر انعزال المحليات المحلية (localized localisms) في مدينتَي الخليل ونابلس. وفي رأيي، فإن الباحثتين غالتا في وصف ثقافة رام الله بالفردانية والكوسموبوليتية، وفي الاحتفاء بفرادتها في المناطق الفلسطينية. فرام الله، بالنسبة إليّ، هي مكان إتروتوبي (heterotopic) قادر على جعل المجموعات المختلفة (السكان المحليون؛ العائدون من الشتات؛ مسؤولو السلطة الوطنية الفلسطينية؛ الطلاب؛ المفكرون؛ المهنيون...) علاوة على فضاءات عدة ومواقع متعارضة متعددة، تتجاور في مكان حقيقي واحد، ومن دون أي تفاعل فعلي.

إن الجدل الدائر بشأن تصميم نصب تذكاري في وسط ساحة المنارة في مدينة رام الله، يكشف لنا الكثير. فمع أن سكان رام الله، في معظمهم، هم من المهاجرين المحليين والعائدين من الشتات واللاجئين، إلا إن بلدية رام الله رفضت التصميمات المعاصرة التي قدمها المعماريون، وأصرت على الاحتفاظ بتماثيل الأسود السبعة التي ترمز إلى العائلات السبع الكبيرة في رام الله التاريخية. إذاً، استثنائية رام الله مقارنة بمحيطها الريفي والمدينتَين الأخريين، ليست على هذا القدر الكبير من الاستثنائية. وهنا أفضّل استخدام تعبير «كوسموبوليتية مبتورة». وكما نرى في تحليل ستيفن سيدمان (Steven Seidman) لمنطقة الحمراء في بيروت، فإن وجود التنوع الاجتماعي لا يستدعي بالضرورة وجود ثقافة كوسموبوليتية. فاختلاف الآخر (otherness) يمكن أن يشكل تهديداً، أو قد يكون موضع ترحيب، أو ربما يُقابَل بالتسامح أو بالتقدير. الكوسموبوليتية تتطلب نفوساً تسمح «بتغلغل» الاختلاف، نفوساً تزداد مدركاتها ثراء نتيجة التحديات التي يطرحها العالم الحياتي الذي يوفره اختلاف الآخر.

وقدم جميل هلال، في الكتاب، دراسة تناولت تأثير الهجرة في التكوين الطبقي (وخصوصاً الطبقة المتوسطة)، وبيّن أن الهجرة شكلت سمة بارزة ودائمة في حياة المجموعات الفلسطينية منذ سنة ١٩٤٨. لكن التحليل الأهم الذي يقدمه هو تحليل الهجرة (ولا سيما إلى الأردن ودول الخليج) كأداة لانتشار النزعة الاجتماعية المحافظة، لا في مجتمعات قرى الضفة الغربية فحسب، بل في المدن ومخيمات اللاجئين أيضاً. والنزعة الاجتماعية المحافظة هذه، تؤكد أهمية التقاليد والهويات المحلية، وكذلك التضامن القرابي. والواقع أن القرابة كان لها الفضل الأكبر في قيام الأقرباء من المهاجرين الرواد باستقطاب العديد من المقيمين في فلسطين في عملية «هجرة

تسلسلية » (chain emigration) . وهكذا نجد، مثلاً، أن ثلاثة أرباع المهاجرين من قرية ترمسعيا موجودون في الولايات المتحدة. لكن هلال يربط العلاقة القرابية بالنزعة الاجتماعية المحافظة ربطاً ميكانيكياً، فهو يعتبر أن ذهاب المهاجرين، في معظمهم، «إلى أماكن لهم فيها أقارب وصلات اجتماعية، وثيق الصلة بتفسير سبب توليد الهجرة لنزعة المحافظة.» لكن المهاجرين الفلسطينيين إلى أميركا الشمالية، مثلاً، والذين ذهبوا إلى أماكن لهم فيها أقرباء، هم أبعد ما يكونون عن نزعة المحافظة الاجتماعية. بالإضافة إلى ذلك، فإن السمة الدائرية للهجرة، أي كون الهجرة قائمة على حركة الذهاب والإياب بين البلاد، بما في ذلك العودة أكثر من مرة، تجعل من الهجرة ظاهرة معقدة متعددة المستويات، وهي تستحق تحليلاً أكثر دقة وتفصيلاً من التحليل الذي قدمه هلال.

يضم الكتاب أيضاً دراسة مفصلة دقيقة ومثيرة للاهتمام أعدتها بَني جونسون (Penny Johnson) وتناولت فيها الزواج القرابي في الضفة الغربية، فسبرت البيانات المأخوذة من معهد دراسات المرأة (١٩٩٩)، وكذلك أرقام الإحصاء الذي أجاره الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني (١٩٩٧)، وأظهرت استمرار (وأحياناً زيادة) معدلات هذا النمط من الزواج. وخلافاً للخطاب الاستشراقي والفلسطيني الرسمي بشأن الزواج القرابي، تُظهر جونسون وظيفية هذا النمط من الزواج، والدور المؤثر الذي يقوم به ضمن أجواء الاحتلال في المناطق الفلسطينية. وتلاحظ جونسون أن أنماط القرابة توفر استراتيجيات (معاصرة) للاستجابة للحداثة وللتحديات التي تطرحها في وجه العائلات في مجال الحفاظ لا على رأس المال المادي فحسب، بل على «رأس المال الرمزي» لهذه العائلات. كما تُظهر جونسون أن الزواج القرابي هو خيار الشباب أيضاً. لكن المؤسف أن جونسون لم تر في الزواج القرابي ممارسات مقيِّدة (ناتجة من بنية العائلة مثلاً)، لا ضمن سياق الهجرة والترحيل، ولا في سياق ازدهار النزعة المحافظة في المجتمع الفلسطيني، في الضفة الغربية والشتات. الزواج القرابي غالباً ما يكون مفضلاً في حالات الزواج التي يرتبها الأهل، وفي الأجواء التي تتقلص فيها الفضاءات العامة التي يتقابل فيها الشبان من الجنسين، وتحتجب فيها النساء. هنا لا يوجد خيار إلاّ الطلب من الأهل اختيار الزوجة. وقد أظهر لي عملي الإثنوغرافي في مخيمَي اليرموك والبداوي، وبوضوح، أن الأهل ينشطون للعثور على الزوجة بين الأقرباء أولاً، ثم بين الجيران، وأخيراً بين الأصدقاء. وما من شك في أن ذلك يمثل أحد الأسباب الرئيسية – التي لم تُذكَر – لانتشار الزواج القرابي.

كلمة أخيرة، الكتاب عمل فكري زادت في ثرائه وسعة معلوماته الملاحظةُ الدقيقة للأفراد خلال أعوام من إقامتهم بالمدينة. لقد ساهم الاستخدام الحيوي الذكي والماهر للمسوحات المذكورة، في تعزيز الذات الفلسطينية وإضفاء القوة عليها، إذ تم فهمها باعتبارات ذات مقاوِمة.